

## بعد تكوين المدارس الفقهية حركة الاجتهاد تتفاعل مع بيئتها

د. حسن بكير

أستاذ الدراسات الإسلامية | هولندا

خصائص الاجتهاد بعد القرن الرابع الهجري:  
يتفق أغلب المؤرخين - للفقهاء الإسلامي - على اعتبار القرن الرابع الهجري العصر الذهبي لحركة الاجتهاد الفقهي؛ لأن المدارس الفقهية قد تميّزت معالمها واتضحت مناهجها، ووضع أصحابها مصنفات جمعت أصولهم في الاستنباط، واستوعبت ثروة ضخمة من اجتهاداتهم.

وإذا كان من السنن التاريخية أن يلي فترة النضج والكمال بداية الضعف والتراجع؛ فإن الانتقال من عصر الاجتهاد إلى التقليد والجمود لم يكن انتقالاً فجائياً، وإنما تدرج عبر مراحل زمنية تطول أحياناً وتقصّر أحياناً أخرى.

والإشارة إلى ما أحاط بكل عصر من ظروف سياسية واجتماعية تسهم في فهم الأوضاع التي آلت إليها حركة الاجتهاد. فالسياسة ظلت عاملاً مؤثراً في الفقه والفقهاء، والمدارس الفقهية التي كتب لبعضها البقاء ولم يكتب لبعضها الآخر.

إن ما ميّز هذا الدور، الانقسام السياسي الحاد بين الأقطار الإسلامية وعدم الاستقرار داخل الأنظمة السياسية نفسها. فعمر الدول أصبح قصيراً؛ إذ - مع إشراف الدولة العباسية على السقوط والانهار - برزت دويلات أخرى ورثت ما كان للعباسيين من قوة ونفوذ، سواء - منها - من بقيت مرتبطة بالخلافة - اسمياً - أم من انفصلت عنها تماماً كما هو الحال بالنسبة لدولة بني أمية في الأندلس، والدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي.

ولا شك أن قيام دولة إثر دولة لا يوفر جو الاستقرار الضروري لتطور الحركة العلمية وازدهارها، ولا يحقق حرية تنقل العلماء بين الأقطار، ولا يحافظ على الصلات العلمية بينهم. ثم إن الصراع - على الحكم - ورث المتنافسين - غالباً - الاهتمام بالسلطة والنفوذ بدلاً من الاهتمام بالعلم والعلماء. فتشجيع العلم ما كان يتم إلا بالقدر الذي يخدم هدف الحاكم.

وعلى الرغم من تدهور الأحوال السياسية، فإن المستوى العلمي لم ينحدر بنفس سرعة الانحدار السياسي؛ ولعل أهم ما يفسر هذه الظاهرة أن حركة الاجتهاد قد اكتسبت قوة ذاتية بفضل الجهود الهائلة التي بذلها أئمة المدارس الفقهية أنفسهم، وبإسهام تلاميذهم النجباء الذين استطاعوا أن يحفظوا المذاهب بتحديد مناهج الاجتهاد وبتدوين الفقه - أصولاً وفروعاً -

ويمكن القول بأن الثروة الهائلة التي ورثها عصر المدارس الفقهية - القرن الرابع الهجري - استهلكت قدراً كبيراً من طاقة العلماء. وبدلاً من أن تُبذل هذه الطاقة في الاستمرار على نهج الأئمة الأعلام في استخدام آليات الاجتهاد مباشرة، فإنها بذلت في فهم ما تركه الأئمة - من إنتاج فقهي - وشرحه وجمعه وتبويبه.

ولا شك أن في هذا العمل خدمة كبيرة للفقهاء الإسلامي، غير أنها خدمة جاءت - مع مرور الزمن - على حساب حركة الاجتهاد حتى وصل الأمر إلى أسر التقليد المحض، يقول أحمد

أمين: « فالمنهج النقلي لا يُعدُّ للتجديد والابتكار، وإنما يُعدُّ لرواية الخلف عن السلف، وكلما تقدم الزمن زاد عبء السلف على أكتاف الخلف فشل ابتكارهم »<sup>(1)</sup>.

وإذا كان من الواجب الاعتراف بأن الاستقلال – في الاجتهاد – استقلالاً تاماً – بعد القرن الرابع – أضحى متعذراً، فإنه ينبغي ملاحظة أن مرجع ذلك ليس إلى ضعف في القوى والملكات، بل لكثرة الدراسات واتساع أفاقها في المذهب. إذ لا يكاد فقيه يأتي بمجموعة من الأصول لم يسبقه إمام قبله. فكان – طبعياً – الانتساب إلى مذهب معين مع حرية البحث والاجتهاد.<sup>(2)</sup>

وعلى العموم، فإن الاجتهاد – بعد القرن الرابع – انحصر في دائرة المذاهب المشهورة لا يتجاوزها. وتمثل عمل الفقهاء في:

### 1 – تعليل الأحكام:

فتبلور الاتجاهات الفقهية في إطار مذاهب ذات مناهج خاصة في الاستنباط حمل المنتسبين لكل مذهب – على استخلاص علل الأحكام بهدف القياس عليها فيما لم يرد فيه نص. وإذا كان الفقهاء أنفسهم قد تختلف طرقهم في استخراج علل الأحكام، فإنه لا بد وأن تظهر اختلافات في التطبيق على الفروع. ولا يخفى أن الانتماء المذهبي وشيوع الجدل والمناظرات – بين أصحاب المذاهب – دعا كثيراً – من المشتغلين بالفقه – إلى تتبع فتاوى أئمتهم، لاستخلاص أصولهم وقواعدهم التي يعتمدون عليها في الاستنباط، لا سيما أن الأئمة أنفسهم لم يصوغوا تلك القواعد كلها، ولم ينصوا عليها بالتعيين، بل – كما يقول أحد المؤلفين المعاصرين – : « لم تصح بها رواية عنهم، وإنما هي قواعد مستخرجة من كثير من الفروع، وعلى هذا أصول البزدوي في مذهب الحنفية، وقواعد القرافي وعباس وغيرهما في مذهب مالك »<sup>(3)</sup>. وهذا مما ساعد – كثيراً – على نمو القياس وشيوعه بين أغلب المذاهب الفقهية.

### 2 – الترجيح بين الآراء:

وهو على نوعين:

أ – ترجيح الرواية: ويتمثل في تفضيل أوثق الروايات عن إمام المذهب. فقد يتعدد الرواة الذين يروون عن الإمام ويختلفون فقهاً وضبطاً، فكان من الضروري ترجيح رواية أضبطهم وأفقههم. كترجيح الأحناف روايات محمد بن الحسن الشيباني على سائر الأصحاب.<sup>(4)</sup>

ب – ترجيح الدراية: ويتم بين الروايات الثابتة عن الأئمة أنفسهم إذا اختلفت، أو بين ما قاله الإمام وما قاله الأصحاب. ولا يكون هذا الترجيح – طبعاً – إلا من فقيه عليم بأصول المذهب وقواعده، وعارف بطرق الأئمة في الاستنباط.

### 3 – الاشتغال باختصار المصنفات الفقهية وشرحها:

إن كثرة المؤلفات الفقهية – في القرن الرابع الهجري – وانتشار المصنفات الضخمة كان سبباً في صعوبة الحفظ؛ لذلك اتجه كثير من الفقهاء إلى الاختصار وجمع الفروع مجردة عن أدلتها. وقد بالغوا في الاختصار إلى حدٍ صارت معه العبارات أشبه ما تكون بالألغاز. وقد دعا هذا إلى وضع شروح عليها وحواشٍ وتعليقات تزيل ما شابها من تعقيد، وتوضح ما لفها من غموض. ولا شك أن هذا الأسلوب – في التعليم – يرهق العقول، ويميت الملكات؛ فيحمل المتعلم – عند تعذر الفهم – على الركون إلى الحفظ الآلي لحشد المعلومات دون إدراك صحيح أو فهم سليم.

1 - ظهر الإسلام، أحمد أمين. 192/4.

2 - ابن تيمية، محمد أبو زهرة. القاهرة، دار الفكر العربي. ص 424.

3 - تاريخ التشريع الإسلامي، للسبكي. ص 346.

كان الأحناف أكثر من غيرهم اشتغالاً بتعليل الأحكام. فهم أشهر من أخذ بالقياس؛ لأن كثيراً من مصنفاتهم – التي تُعدُّ الأساس في المذهب – خلت من التعليل، فدفعهم ذلك إلى استقراء الفروع واستخراج العلل التي يقوم عليها القياس.

4 - تاريخ التشريع الإسلامي، الخضري. ص 246.

لقد قامت فكرة الاختصار على أساسين مهمين:

الأول- تقليل الألفاظ لتيسير الحفظ.

الثاني - جمع شتات المسائل من أغلب كتب الفروع في المذهب الواحد.

لكن المبالغة في الاختصار<sup>(5)</sup> أضرت بالمقصد من هذين الأساسين. والشراح<sup>(6)</sup> - أنفسهم -

لم يسلموا من أضرار الاختصار حينما اختصر بعضهم لبعض.

وقد ازداد الأمر سوءاً بمرور الزمن ودخول القرن العاشر الهجري، حيث قطعت الصلة

بذخائر مصنفات القرون الأولى، ودخل الفقه عهد التقليد المحض القائم على أساس حكاية

الشروح والحواشي والتقارير التي أنجزها السلف.

4 - الاشتغال بالجدل والمناظرة:

لم يكن الجدل غريباً عن الفقهاء في القرون الأولى؛ فقد عرفوه منذ فترة مبكرة، لكنه كان

في دائرة محدودة وضيقة. أما المتكلمون، فكانوا الأكثر اشتغالاً به، إلا أن الجدل في القضايا

الكلامية أثار فتناً وصراعات، وأدى - أحياناً - إلى التكفير وسفك الدماء. الأمر الذي دعا

الحكام إلى إغلاق هذا الباب - بعد أن دخله كثير منهم - وتوجيه الجدل إلى قضايا الفقه؛ لكونها

أهون خطباً من قضايا الكلام.

بيد أن المناظرات الفقهية - بعد القرن الرابع الهجري - انحرفت عن مسارها الأول<sup>(7)</sup>؛ فقد

كان الهدف من التناظر - بدايةً - الوصول إلى الحق أينما كان ومع من كان، ثم تحول إلى رياء

ومفاخرة أمام الخلفاء والأمراء. لنيل الحظوة وتحقيق المكاسب، ولا شك أن الحرص على

تحقيق هذه الأغراض يورث المتنافسين حقداً وحسداً، وجحوداً للحق.<sup>(8)</sup>

وبشيوخ التقليد انتشرت مجالس الجدل والتناظر، حتى لم تكد تخل منها مدينة في العراق

أو خراسان<sup>(9)</sup>، غير أنه قد نتج - عن احتدام المناقشات الفقهية<sup>(10)</sup>، وتحول دوافعها من الرغبة

في معرفة علل الأحكام أو استنباط قواعد الشرع إلى حب الغلبة والتعصب للمذهب - أمران:

1 - استقلال علم أدب البحث والمناظرة، أو علم الجدل كما سماه ابن خلدون.<sup>(11)</sup>

2 - تحول الخلاف المذهبي إلى مخاصمات وعداوات. ولم يقتصر الخلاف على الخاصة -

من العلماء -، بل أقحم فيه العوام والعوام - عادةً - ضيق الأفق، قصيرو النظر، عديمو

التسامح؛ مما نتج عنه تناحر شديد، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى عدم تجويز إمامة المخالف

للمذهب.

5 - مثال ذلك: "المدونة"، وهي أشهر المصنفات في الفقه المالكي، كانت الأساس لكثير من المختصرات،

أبرزها: مختصر ابن أبي زيد القيرواني، الذي اختصر على يد البرادعي في كتاب "التهذيب" (الشهير

بالمدونة أيضاً). وقد اختصر التهذيب بدوره - على يد أبي عمرو بن الحاجب في أواسط القرن السابع

الهجري. ومختصر ابن الحاجب اختصر - كذلك - في القرن الثامن وعُرف بمختصر خليل. فمختصر خليل

هو مختصر مختصر المختصر، بتكرار الإضافة ثلاث مرات. المقدمة، ابن خلدون. ص 498؛ والفكر

السامي، للحجوي. 399/2.

6 - التزم الشراح بنقل عبارات المتقدمين حرفياً، مما أطال الشروح وأضاع الفقه الحقيقي بإهدار الجهد والوقت

في حل المفقل وبيان الغامض. الفكر السامي. 400/2.

7 - يقول أبو حامد الإسفراييني - مصوراً خروج الجدل والمناظرة عن الإطار الموضوعي -: « لا تعلق كثيراً

مما تسمع مبي في مجالس الجدل؛ فإن الكلام يجري فيها على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبتة. فلسنا

نتكلم لوجه الله خالصاً. ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام. وإن كنا في

كثير من هذا نبوء بغضب الله، فإننا - مع ذلك - نطمع في سعة رحمته». طبقات الشافعية، للسبكي. 62/4.

8 - الفكر السامي. 144/1؛ وتاريخ التشريع، للخضري. ص 248؛ وتاريخ التشريع، للسبكي، ص 350.

9 - تاريخ الجدل، أبو زهرة. ص 296.

10 - لا سيما بين الحنفية والشافعية.

11 - ظهر الإسلام. 194/4؛ وتاريخ الجدل، أبو زهرة. ص 299.

ومع ذلك لم تخل العصور التي أعقبت القرن الرابع الهجري من نتاج فقهي مهم – وإن كان نتاجاً مقيداً بالمذهب. وحسبنا أن معظم المصادر والمراجع الفقهية التي بين أيدينا – اليوم – من مختلف المذاهب – هي من تأليف فقهاء هذه العصور.<sup>(12)</sup>

#### 12 - أ - من فقهاء المذهب الحنفي:

- 1 – محمد بن أحمد السرخسي (ت490هـ) صاحب كتاب "المبسوط"، و"الأصول" ..
  - 2 – مسعود بن أحمد الكاساني (ت587هـ) صاحب "البدائع".
  - 3 – علي بن أبي بكر المرغيناني (ت593هـ) صاحب كتاب "البداية" وشرحه "الهداية".
  - 4 – الكمال بن الهمام السكندري (ت861هـ) صاحب كتاب "فتح القدير، شرح الهداية".
- ب – ومن فقهاء المذهب المالكي:
- 1- أبو الوليد محمد بن أحمد، بن رشد القرطبي (الجد) (ت520هـ) صاحب "المقدمات"، و"البيان والتحصيل".
  - 2 – أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت543هـ). وله كتاب: "أحكام القرآن".
  - 3 – محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (الحفيد) (ت595هـ). وله "بداية المجتهد ونهاية المقتصد".
  - 4 – شهاب الدين أبو العباس أحمد القرافي (ت684هـ) صاحب "الفروق"، و"الذخيرة"، و"تنقيح الفصول".
- ج – ومن فقهاء المذهب الشافعي:
- 1 – محمد بن محمد الغزالي (ت505هـ)، مصنف "المستصفى من علم الأصول"، و"المنحول"، و"الوجيز في الفقه" ...
  - 2 – محيي الدين أبو زكريا بن شرف النووي (ت676هـ) صاحب كتاب "الروضة"، و"المجموع شرح المذهب" ..
  - 3 – أحمد بن محمد بن علي بن حجر (ت995هـ) وله "تحفة المحتاج شرح المنهاج".
- د – ومن فقهاء المذهب الحنبلي:
- 1 – أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقبي (ت334هـ)، وأشهر مصنفاة: "مختصر الخرقبي".
  - 2 – أبو محمد موفق الدين المقدسي (ت620هـ) صاحب "المغني" وهو شرح "مختصر الخرقبي".
  - 3 – أحمد بن عبد الحلیم أبو العباس بن تيمية (ت728هـ) صاحب المؤلفات الموسوعية ك"الفتاوى"، و"منهاج السنة النبوية" ..
  - 4 – محمد بن قيم الجوزية (ت751هـ) صاحب "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، و"زاد المعاد"، و"الطرق الحكيمة" ...
- ومن غير المذاهب الأربعة المشهورة:
- أبو محمد علي بن حزم (ت456هـ)، وله كتاب "المحلى في الفقه"، و"إحكام الأحكام في أصول الفقه" ...